أسس التنظير للقوة في العلاقات الدولية

أ. نبيلة بن يحي

أستاذة مساعدة بكلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر 3.

ملخص:

يعتبر حقل العلوم السياسية من العلوم الذي كثر الجدل فيها، من حيث تعدد المدارس والاتجاهات والأهداف، وباتت الصفة المحددة لعلم السياسة التداخل والتشابك وكثرة التأويل للظاهرة السياسة وللحقائق المرتبطة بها. وقد ارتبط هذا التداخل والتعقيد في تفسير الظاهرة السياسية في علم السياسة بالتخصصات الأخرى المرتبطة به، وكان علم العلاقات الدولية والكم الهائل من النظريات التي وجدت لها مدا واسعا وموقعا حاسما بعد المد القومي في تاريخ الفكر السياسي الغربي وبالذات إثر مؤتمر وستفاليا 1648، وعلى إثره تم الإقرار بالأسس الجديدة للسياسة الدولية وأهمها احترام سيادة الدولة. وتواصلت الأحداث التاريخية وتزامنها مع التطورات العلمية والفكرية والاقتصادية إثر ظهور الثورة الصناعية وتبعتها الثورات التكنولوجية في جميع مضامينها، التي أدت إلى التأصيل والتأسيس لمنظومة سياسية شاملة أكثر تعقيدا وتداخلا مما كانت عليه في السابق خلال الحرب العالميتين الأولى والثانية.وبات الوضع الدولي رهين الثورة الرقمية وتطلعاتها في التحول الشامل التي تشهده العلاقات السياسية الدولية بعد الحرب الباردة.

الكلمات المفتاحية: التنظير، العلاقات الدولية، مقاربات العلاقات الدولية.

Abstract:

Political Science is one of the most controversial fields in terms of the multiplicity of schools, trends and objectives, so that some of the particularities of political science are : overlapping, intertwining and the infinite interpretations of the political phenomenon and the related facts. This overlap and complexity in the interpretation of the political phenomenon was associated with other disciplines. The International Relations field of study and the huge number of theories had had implications within Western political thought, especially following the Conference of Westphalia 1648. Th new sets and foundations of international policy, most importantly the respect for the sovereignty of States. Later historical events coincided with scientific, intellectual and economic developments followed by the emergence of the industrial revolution and by the technological revolutions with all its life implications, which led to the establishment of a more complex and overlapping political system as compared to the inter-war world. The stakes were growing at the dawn of the digital revolution and its aspirations for the comprehensive transformation of international political relations after the Cold War.

Keywords: Theorization, international relations, IR approaches.

القوة: المحدد الرئيسي في العلاقات الدولية

أجمع الكثير من علماء السياسة في حقل العلاقات الدولية أن القوة المحدد الرئيسي في العلاقات السياسية الدولية من ترتشكا Trischka 1896 وسبيكمان Speakman 1943 و"ادوارد كار" Edward Hallett Carr 1960 وجورج كينان George Kennan 1966، أرنولد وولفر Arnold Walfer1968، رينهولد نيبور 1971، مارتن وايت Martin Wight 1972، هنري كيسنجرHenry Kissinger 1980، بول كيندي Paul Kennedy 1987، الذين كانوا "جزء من المزاج الفكري لعصر بعينه- خلال فترة كان الصراع والفوضى،في واقع الأمر القوام الرئيسي للعلاقات الدولية في ذلك العصر"[1].

ومن القضايا الأساسية في العلاقات الدولية رغبة الدول التي لديها القوة استرعاء انتباه الدول الأخرى في قدرتها على طرح القضايا ومعرفة إدارتها عن جدارة واستحقاق، بحكم القوة التي تتمتع بها.

وعلى هذا الأساس، تعدد ت مصادر القوة حتى يمكن فهم وتفسيرالسلوك الدولي وأهمها:

-العامل السياسي والتركيبة البنيوية للنظام السياسي وتفاعلاته مع البنى الاجتماعية الأخرى.

-العامل الاقتصادي.

- العامل العسكري.

- العامل النفسي.

- العامل الجغرافي.

- العامل البيئي.

- الهدف الاستراتيجي.

ويمكن "قياس القوة ليس بمقارنتها بما لدى الآخرين بل ما يترتب على امتلاك هذه القوة من نتائج"[2]، كذلك تعددت وجهات النظر في تقديم أو تأخير وتوظيف العوامل المختلفة للقوة في إدارة الشؤون الدولية وهذا يرجع للمحيط والبيئة التي تتباين بين متغيرين الصراع والتعاون ومن خلالهما تتحدد الأبعاد الحقيقية لهذه العوامل سواء أكانت بتقديم أو تأخير أحدهم.

وقد سعى علماء السياسة والعلاقات الدولية يتحدثون عن الاستخدام الأمثل للقوة بعد ما كانت الصفة الملازمة لها بالقوة الصلبة وعادة ما كانت الحرب المفهوم الملازم لها والمضايقة من خلال الهيئات الدولية والإقليمية،وترجمتها اقتصاديا بسبل الضغط والمقاطعة والحصار إلى أن جاء جوزيف ناي وقدم تصوره للقوة في كتابه المعنون بـ" **القوة الناعمة: وسيلة للنجاح في السياسة الدولية**". فالتحولات الدولية ساهمت في تراجع دور القوة الصلبة وقللت من فاعليتها من خلال الاعتماد المتبادل، والذي جعل من الصعب استخدام القوة في صورتها القهرية، لما يمثله هذا الأمر من خطر في النمو الاقتصادي والمصالح المالية.

هذه التحولات دفعت جوزيف ناي Joseph Nye إلى طرح مفهومه عن القوة الناعمة والتي تعني "قدرة الدولة على التأثير في الدول الأخرى، استنادا إلى جاذبية نظامها الاجتماعي والثقافي ومنظومة قيمها ومؤسساتها، بدلا من الاعتماد على الإكراه أو التهديد"[3].

ولبناء هذه القوة تعتمد الدولة على مصدرين:

- القيم السياسية
- السياسة الخارجية.

والأهم في هذا الأمر حسب جوزيف ناي ""المصداقية والشرعية"، فإذا كانت الثقافة والقيم السياسية والسياسة الخارجية متناقضة مع القيم المقبولة عالميا فقد يؤدي إلى التنافر خاصة إذا حدث تناقضا بين ما تصرح به الدولة وما تعمل به.

في حين يسعى الاتجاه الآخر في حقل العلاقات الدولية، الذي يعطي بعدا ديناميكيا للقوة منتقدا في نفس الوقت النظرية التقليدية أو ما يسمى بالمدرسة الواقعية التقليدية، من خلال ما يطلق عليه **بدورة القوة** وتفاعلاتها في النظام الدولي.

إذ تشدد هذه النظرية على أن مفهوم القوة نسبي وتعتمد على "الجانب السلوكي للقرار والاهتمام ببنية النظام"[4]، فالقوة والدور مفهومان مشتركان في ظل منظومة دولية متشابكة رغم درجة عدم التكافؤ بين الوحدات السياسية.

فبدلا من أن تمارس الدولة العظمى السيطرة على النسق، تذهب نظرية دورة القوة في أن تقوم الدولة الأقوى بدور القائد بالتعاون مع الدول الأخرى قادرة على ممارسة دور رئيسي في

السياسة الدولية، وهذا بعد التفاوض والاتفاق مع هذه الدول حول الأدوار الموزعة في تسيير الشؤون الدولية. و"تقوم هذه النظرية على أن قضايا النسق الدولي من حرب أو سلام لا تدل على نمط معين للنسق الدولي ولكن المهم عملية التحول إلى نسق آخر[5]". وهذا التحول يمثل الحدث الهام في الأنساق الدولية، الذي يؤدي إلى ظهور نمط غير خطي،من التغير الهيكلي الذي يتسم بالكثافة وعدم القدرة على التنبؤ، قد يؤدي إلى تهديد أمن دول أخرى. وهذا الوضع غير المستقر قد يؤدي إلى الحرب، وما تفسره هذه النظرية على أساس "أن القوة العظمى أو الدولة الأكثر قوة تعاني تراجعا وأفولا، فلا بد من استمرار مشاركتها في مسؤوليات حفظ النظام وتيسير مهمة تعديل دور هذه القوة أثناء عملية تحول النسق".[6]

والملاحظة أن هذا المنظور التعددي والترابطي في العلاقات الدولية ليس بالجديد، بقدر ما ساهم فيه الكثير من المفكرين، الأنكلو سكسونيين، مساهمة فعالة؛ وللإشارة أن وثيقة كامبل[7] التاريخية التي تمثل الصورة الواقعية لإستراتيجية أوروبية لضمان سيادة الحضارة الغربية وطول أمدها والتي ترى العالم من خلال ثلاث مساحات، وأهم هذه المساحات:

المساحة الأولى: تتكون من الوحدات التي تقع في المنظومة المسيحية الغربية، وتقرر الوثيقة أن من واجب بريطانيا تجاه هذه المساحة من الحضارة – على أي حالٍ من الأحوال- ألا تكون السيادة على العالم خارج إطارها. أي أن هذه المنظومة الحضارية هي التي تسيطر على العالم ويظل زمام الأمور بيدها.

وإذا كانت أي حضارة لا شك ستنتهي بحسب نظرة فلسفة التاريخ – فإنها يجب أن تضمن أن وريث هذه الحضارة من نفس المساحة ومن جوهر المنظومة الغربية. وقد تداول مؤتمر كامبل مراجعة شاملة لقضايا النهوض العلمي والتقدم في المعرفة بالتأكيد على التوجهات الفكرية الداعية إلى التحول نحو العقلنة (ديكارت وفولتير) وإحلال الإنسان في الموقع المركزي الكوني،وأهم ما تداوله مؤتمر كامبل، مفهوم الوعي النقدي الضدي كامتداد لحقل المعرفة والعقلنة.

هذا المفهوم أخذ مساره في حقل فلسفة التاريخ على شكل رؤية لبناء المجتمعات ونمو الحياة البشرية، أخذ بها هيجل (1770 – 1831) وتتلخص في أن كل المجتمعات تحتاج إلى أن تجدد أفكارها، وأن تجد الأفكار حرّية واسعة تستطيع فيها أن تمارس دورها في تطوير المجتمعات من خلال الأفكار المتناقضة وصراع الأفكار الذي يولد الأفكار الجديدة ويحقق نمو الحياة البشرية. هذا

المفهوم يسمح بتداوله في المجتمعات الغربية وحسب دون غيره من المجتمعات الأخرى، وهكذا تمكن الغرب من خلال ممارسته لهذا المفهوم وامتلاكه لثنائية المعرفة والسلطة من تجاوز أزماته المستمرة.

علاقة القوة بالمعرفة:

إن الجانب الترابطي في القوة ينظر إلى أن عنصر القوة متغير تابع وليس مستقلا، لأن مفهوم القوة عرف تحولا جذريا، بعد ما كانت الملكية هي معيار القوة، حاليا تتمحور حول المعرفة، ويؤكد هذا الرأي بكمنستر فوللر B. Fuller، الذي يشير إلى ثلاثة مراحل:

1-مرحلة العنف: وتمركزت السلطة في يد ملاك الأرض والجنود.
2-مرحلة الثروة: وتمركزت في يد أصحاب المصانع.
3-مرحلة المعرفة: وتتمركز في يد العلماء."[8]

وهذا التصادم أو ما اصطلح عليه بالصراع الأمريكي- السوفياتي، الذي هو في حقيقة الأمر **تصادم في حقل المعرفة**، أدى إلى تنافس بين قوتين عظيمتين. والذي يفسر أن المعرفة، مؤشر ديناميكي في تحديد الدور الحقيقي في حقل العلاقات الدولية من خلال العناصر التالية:

1- العلم.
2- تطور مفاهيم استيراتيجية – عسكرية،أمنية، جيوبوليتيكية-.
3- التقدم الاستخباراتي لا سيما في الجانب الاقتصادي والتقني.
4- اللغة وتطورها.
5- انتشار الثقافة السياسية.
6- تطور نظم الاتصالات.

هذه العناصر مجتمعة **ساهمت وبسرعة** في تحول العلاقات السياسية الدولية نحو الاندماج تحت تأثير ما يسمى بالعولمة من اقتصادية وتكنولوجية، وبالتالي يتغير أساس القيادة من السيطرة العسكرية إلى أهمية القضايا الفكرية والثقافية في بيئة يتزايد الحيز الثقافي لإدارة المجتمع والدولة.

وفي ظل هذا التجاذب المعرفي كان لابد من توصيف أي نوع من القوة التي ستعمل في هذا الاتجاه الإدماجي والترابطي، ويذهب البعض من المفكرين في تطبيق "مفهوم القوة الإكراهية أو

الجبرية The compulsory power"[9]، أي استخدام الإجبار والترويع في حالة الضرورة لاستمرار السيطرة على الآخرين ومن ضمن هذه النماذج.

– نموذج الولايات المتحدة الأمريكية

إن استمرار الهيمنة الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية باستعمالها القوة الجبرية بفضل المجال المعرفي المتطور التي هيكلت فيه الولايات المتحدة نفسها بما يسمى بالقوة المؤسسية The institutionnel power عبر مؤسسات رسمية وغير رسمية، تدير العلاقات السياسية الدولية، ويتم في إطارها تقييد أفعال وظروف الآخرين، مما يساهم في عملية السيطرة والهيمنة، وهذا ما يجرنا نحو ما ابتكره جوزيف ناي بالقوة الناعمة.

والجدير بالذكر، أن المؤسسات الدولية خلقت توزيعا عشوائيا للمكاسب، والمستفيد الأكبر، الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها المتحكم الرئيسي في الأمن والمال والمعرفة والإنتاج.

وبالتالي بات موضوع، ميزان القوى، أو توازن القوى لم يعد المؤشر الفاعل في العلاقات السياسية الدولية المعاصرة بعد تراجع الدور السوفيتي سابقا في العلاقات الدولية، بقدر ما أن الموضوع، يتمركز حول القوة المهيمنة ومن يشارك هذه القوة في أدوارها على الساحة الدولية، لأن فلسفة عدم الاستقرار The philosophy of Instability، باتت المحدد الأساسي لمجال العلاقات السياسية الدولية.

لأن مسلمات التوازن المرتبطة بالاستقرار والانتظام في مسار العلاقات الدولية أصبح موضع شك، بل إن عدم الاستقرار وعدم الاتساق يؤدي إلى أحداث جديدة، وبالتالي إلى إمكانات جديدة وفرص جديدة التي لم تتوفر في حالة الاستقرار والتوازن أو توازن القوى إبان الحرب الباردة.

وهكذا، ففي الوقت الذي تحاول فيه الفيزياء أن تعتبر عدم الاستقرار جزءا من بنيتها، كذلك علم السياسية اليوم وخاصة العلاقات السياسية الدولية؛

– وذلك بتحويل عدم الاستقرار من محور سلبي إلى إيجابي، لأنها تقف وراء البحث عن الحلول الممكنة والمتاحة وبالتالي مجال التطور والإبداع مفتوح أو كما يسميها المؤرخ أرلوند تونبي Arnold Toynbee بالوسيلة الذهبية والاستجابة الصحيحة.

– إضعاف فكرة القدرة على التنبؤ لمجرد الاعتقاد بمعرفة قوانين النظام، لأن هناك ظواهر بفعل عدم الاستقرار، لا يمكن التنبؤ بها.

– والذي يعني أن الاضطراب، ظاهرة صحية وبالتالي الفوضى التي تعم الساحة السياسة الدولية، حسب المنظور الأمريكي والغربي، هي إيجابية.

نقطة التوازن في حقل العلاقات الدولية

إن البحث مستمر، في كيفية الوصول إلى نقطة التوازن التي تحدد الفاعل الحقيقي في مسار العلاقات الدولية، ولو أن الإجماع الدولي متفق، على الدور الأمريكي الآني، وأن الولايات المتحدة الأمريكية، تشارك المجموعة الدولية في القضايا الدولية، خلال تحالف القوى الغربية معها، بما أن ظاهرة عدم الاستقرار هي الاتجاه السائد، وبالتالي يصعب التحدث عن توازن القوى في السياسة الدولية في القرن الواحد والعشرين، رغم أن الجدل مازال قائما بين مؤيدي أنظمة توازن القوى ومعارضيها، لأن:

1- مسألة توزيع القوى متغيرة بين الدول وموزعة على نحو متفاوت بين القوى العظمى.

2- مفهوم توازن القوى ديناميكي." في والوقت التي تظهر فيه الولايات المتحدة الأمريكية دولة مهيمنة بصورة مطلقة من ناحية القوة العسكرية، فإن القوة الاقتصادية موزعة بطريقة أعدل بين الولايات المتحدة وأوربا الغربية واليابان"[10].

وهذا مؤداه، أن المرحلة التي تعيشها العلاقات الدولية، مرحلة انتقالية، باعتبار، أن حالة عدم الاستقرار، المحدد لمسار العلاقات السياسية الدولية، سواء أكان في حالة السلم التي تستلزم التعاون والانسجام بين مصالح الوحدات السياسية أو الحرب التي تفرض حالة الصراع والنزاع، بين الوحدات السياسية. والمشهد الدولي، يجمع بين الحالتين، حالة السلم التي ترتكز في مجال جيوبوليتيكي معين المحصورة في الولايات المتحدة الأمريكية وأروبا عموما بينما حالة الحرب محصورة في مناطق معينة من الوطن العربي وإفريقيا وآسيا. والذي يعني أن هناك إدارة مقصودة للأزمات الدولية بتوظيف متغير القوة من القوة الصلبة حسب تعبير جوزيف ناي من خلال الحرب على العراق أو القوة الناعمة بالتدخل في شؤون الآخرين، باسم حل النزاعات أو تحقيق الديمقراطية والحفاظ على حقوق الإنسان سواء تعلق الأمر بفلسطين أو السودان، والقوة الذكية Power Smart التي بات مجالها مكتسحا المجال الحيوي للمنظومة الغربية من خلال المنظومة المعرفية

والتقنية المتطورة في ما أسماه جون أركيلاJohn Arquilla أستاذ العلوم الدفاعية في المدرسة البحرية العليا بكاليفورنيا ودايفيد رونفلت Ronfeldt, David مخطط الاستراتيجيات الحربية، بالحرب الافتراضية Cyber war،باعتبارها حرب المستقبل في كتابهما الذي صدر عام 1999 والذي يتناول على أن حروب المستقبل يجب أن تواكب التحولات الاجتماعية العميقة في بنى المجتمعات. "فإن إدارتها الرئيسية ستكون متمثلة بالإعلام وليس بالأسلحة التقليدية أو بأسلحة الدمار الشامل أو حتى بالأسلحة الذكية.

ولأن الإعلام هو ميزة فيزيائية مثله مثل الطاقة والمادة. وبذلك يصبح من السذاجة الاستمرار في قبول التعريفات التقليدية للإعلام على أنه مرسل ورسالة وأداة اتصال ومستقبل. فالمرسل والمستقبل وأداة الاتصال (إرسال واستقبال) هما مجرد عناصر. أما القيمة الرئيسية فهي للرسالة. فعن طريق الرسالة يمكن خوض الحرب عبر الشبكات(Netwar)،فحروب الغد لا يكسبها من يملك القنبلة بل يربحها ذلك الذي يخبر الرسالة (الرواية) الفضلى! بهذا يطرح الكتاب وبجرأة مفهوماً جديداً للقوة[11]"ويصبح الصراع مرتكزاً على **قطبي التنظيم / الإرباك** حيث **النصر للطرف الأكثر تنظيماً والأقل إرباكاً**، وعندها تصبح القدرة على إرباك العدو مساوية للقدرة على تدميره"[12]، ومن هنا تحدث الهيمنة والسيطرة على الهدف المعين، فحرب المعرفة ارتبطت في القرن الواحد والعشرين، بما يسمى بالحرب الإلكترونية ستاكسنت.Stuxnet ، و"أن ازدياد حجم ومجال الفضاء الإلكتروني، يعني أن آثار أي من هذه الحروب سيكون أوسع نطاقا وأقل توقعا. وتمثل مشكلة مثيرة في المنظومة العسكرية، فإذا كان بإمكان قياس تأثيرات الأسلحة بصفة عامة؛ حتى بالنسبة للأسلحة النووية. ولكن مثل هذا القياس غير موجود في الفضاء الإلكتروني. فلا يمكنك معرفة أين سيظهر التأثير ومتى سيكون؟[13]"

قوة الرقمنة وآثارها:

السؤال الذي يطرح نفسه وبقوة، ما هي الدولة التي تُعد مصدرا لـ"**ستاكسنت**" ولديها قدرات كبيرة في مجال الأسلحة الإلكترونية؟

كل الدراسات أثبتت أن كلا من الولايات المتحدة وإسرائيل لديهما القدرات الكافية والهائلة في الحرب الإلكترونية، والذي ذاع صيتها، من خلال وثائق الوكيليكس. وهذا ما يجرنا إلى القول، أن السياسة الدولية، تتجه وبشكل سريع، نحو حرب الأفكار، التي يتم استخدام القوتين،

القوة اللينة والمتمثلة في الدعاية والمساعدات الاقتصادية والمالية والتعاون الثقافي من أجل الاحتواء. فإذا فشلت القوة اللينة تكون باستعمال القوة الصلبة من خلال الحروب الاستباقية الموجهة عادة إلى نقاط جغرافية معينة، وفي الحقيقة هي بؤر توتر قابلة للانفجار في أي لحظة، كما تشكل معضلة أمنية بالنسبة للدول القوية وتسعى في احتواء هذه المناطق باسم رعاية حقوق الإنسان تارة **والسعي في دمقرطتها وتحديث نسيجها الاجتماعي**، والذي بطبيعة الحال أنتج تشكيلة من الفوضى سواء من فوضى سياسية من حيث هشاشة الأنظمة السياسية من ناحية وضعف البنى الاقتصادية وعدم استيعابها لقضايا اقتصاد السوق وقوانين التجارة العالمية، وضعف المقومات الثقافية والعلمية مقارنة مع نشاط الحركة العلمية والثقافية في أمريكا وأروبا، والذي أنتج منظومة اجتماعية قابلة للانهيار والسقوط والانفجار، في أي لحظة تجد فيها الفرصة الملائمة.

وقد تساهم المنظومة الغربية بقيادة الولايات المتحدة، في إثارة بعض المشاكل بتسميات مختلفة؛ من محاربة الإرهاب، والدفاع عن مصالح الشعوب في تحقيق مصيرها، حسب الرؤية الأمريكية التي لا تزيد قيد أنملة المحافظة، بالدرجة الأولى، على مصالحها الاستيراتيجية.

وهذه المقاربة تكاد لا تبعدنا عن الماضي القريب الذي يمثل نشاط الحركة الاستعمارية، على أنها حركة تبشيرية وحضارية، تساهم في تطوير وتحديث الحالات التي تمر عليها أو تغزوها للانتقال من ظاهرة التخلف والجهل نحو التطور والمعرفة، كذلك هي الهيمنة العالمية اليوم التي ساهم الأمريكيون في تأطير مفهومها نحو تفسير العلاقات السياسية الدولية على أساس أنها تعيش مرحلة من الفوضى التي هي في الواقع مرحلة انتقالية نحو **نمذجة** العلاقات السياسية الدولية في إطار ما يسمى بالحكومة العالمية أكثر تطورا وتحديدا للأهداف؛ لأنه حسب كارل بوبر الظاهرة التارخية لا تعيد تفسها بقدر ما أنها تتطور في نفس الاتجاه وتتخذ أشكالا متعددة وأنماطا مختلفة؛ إننا في حقيقة الأمر، نعيش مرحلة الرايخ الرابع بعد الرايخ الأول[14] والثاني والثالث نحو تطور الحركة الاستعمارية، بتوصيفات متعددة من حماية إلى انتداب إلى استيطان واستيطان إحلالي، جميعها ارتبط أو انحصر بين مفهوم القوة والأمن مثلما هو الحال بالنسبة للفوضى اليوم التي باتت بديلا استراتيجيا في توظيفها للقوة وتبريرها من خلال الحفاظ على الأمن العالمي، وكأن الظاهرة الاستعمارية تعيد نفسها، ولكن بطريقة أكثر تعقيدا واختراقا عمّا كانت عليه في السابق.

وفي هذا الصدد يصرح الباحث الفرنسي سيرج لاتوش:Serge Latouche " إن أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار، لقد انتقل البيض إلى الكواليس، لكنهم لا يزالون مخرجي العرض المسرحي، فإن الهدف مِن الاستعمار ظل ثابتًا أي: التبشير وغزو الأسواق، والتزود بالمواد الأولية والبحث عن أراضٍ جديدة والحاجة إلى الأيدي العاملة.[15] "

– تأتي القراءة الأخرى للقوة في العلاقات السياسية الدولية المقترنة بالاقتصاد وتحديدا بالأمن الغذائي الذي بات يمثل قنبلة موقوتة، وأضحى هناك نحو مليار جائع حول العالم، أي ما يعادل سدس سكان الأرض، ويذكر عالم الاقتصاد الأمريكي والسياسي المشهور ليندون لاروش فيرى Lyndon LaRouche أن ما يجري على الصعيد العالمي بشأن مواد الغذاء هو إبادة جماعية.

– لأن الوضع الدولي لم يقتصر على الرؤية الأحادية في كون القوة مرتبطة بسيادة الدولة –أ– دون الدولة –ب – بل إن موضوع السيادة حددته اتجاهات أخرى.

– فالنظام العالمي القديم والجديد كما يشير إليه عالم اللسانيات الأمريكي نعوم تشومسكي إلى أن الحكومة العالمية والتي تتمثل في الشركات العابرة للقوميات ذات النفوذ الصاعد والمهيمنة على مجالات التمويل والخدمات والتصنيع ووسائل الإعلام والاتصالات،مؤسسات قوية في بنيتها الداخلية، ويصعب حصرها، وذات نزعة مطلقة، وسلطة لا حدود لها.

وفي حقيقة الأمر، ليست اتفاقات التجارة المسماة بـ"التجارة الحرة" كالجات Gatt والنافتا Nafta[16] سوى مسميات مضللة، فمصطلح تجارة نادرا ما ينطبق على ذلك النظام الذي تستأثر فيه بضع شركات عابرة للقوميات على 40 % من تجارة الولايات المتحدة، وتدير العملية التجارية "فيما بينها" وتتحكم في التخطيط والإنتاج والاستثمار.

في ظل هذه الرؤية المتجذرة من قبل مفكر أمريكي عمل كثيرا على تفكيك مفاهيم العولمة المهيمنة لصالح الأقوياء والأغنياء يمكن فهم الدور الذي تقوم به تكتلات تجارية عالمية مثل «اهولد Ahold ونستلة Néstlé وكارجيل Cargill[17] وغيرها.

هذه الإمبراطوريات على حد تعليق البروفيسور الهولندي فون دير بلويغ Jan von der Bloag، قادرة على التلاعب بالأسواق واستنزاف الثروة الزراعية، وفي ظل هذا النظام السائد يتسبب أدنى اختلال في الأسواق في تقلبات كبيرة في الأسعار.

التنظير للقوة أم للحركة الاستعمارية؟

إنّ السمات الرئيسة للنظام الاستعماري القديم لم تزل حتى الآن. ومن وجهة نظر تشومسكي إن إزالة الآخر هو نهج الحضارة الغربية. وهذا النهج مستمر من وجهة نظره المدعومة بمزيد من الوقائع التي يستقيها تشومسكي في كتابه "**الغزو مستمر**" ويرى القرن المنصرم يطرح تحدّياً أخلاقيّاً وثقافيّاً خطيراً على القطاعات صاحبة الامتياز في المجتمعات المسيطرة على العالم، وبحلول عام 1992 انتهى العام (500) من عمر النظام العالمي القديم، والذي يسميه بالحقبة الكولومبية، نسبة إلى كريستوف كولومبس . ويقارن طرائق النازية وأيديولوجيتها بمثيلاتها عند الأوروبيين الذين أخضعوا العالم لسيطرتهم ونهبهم. ولذلك فقد آثر تشومسكي أن يجعل عنوان كتابه الرئيس هو «سنة 501» والعنوان الفرعي هو «الغزو مستمر» وكأننا أمام مرحلة جديدة لغزو جديد ونهج تاريخي جديد هو انهيار للإنسانية من شأنه أن يهدِّد العالم بأسره والكون برمته.

وترمي الفكرة الأساس في هذا الكتاب المهم، إن الإمبراطوريتين الانكلوساكسونيتين (إنكلترا، وبعدها الولايات المتحدة الأميركية)، التي تتكون من الحكومة ورجال الأعمال، هذه الآلية التي تقرِّر مجرى شؤون العالم اليوم.

ويذكّرنا هذا الأمر بالفيلسوف المجري- الإنكليزي كارل بولانيKarl Polanyi الذي لاحظ قبل نصف قرن تقريباً أنَّ السوق الحرة لم يكن لها أن تستمر لفترة طويلة دون إتلاف الجوهر الإنساني والطبيعي للمجتمع، وكان من شأنها أن تدمر الإنسان وتحوّل محيطه إلى خراب.

ينبغي النظر إذن إلى الفكرة الحديثة عن السوق الحرة كالنظرة إلى الأغطية حاملة عدوى مرض الجدري التي وزَّعها الأميركيون على الهنود في إطار المساعدة الحضارية.

لقد أجمعت دراسات عديدة على أن العقدين الأخيرين من القرن العشرين شكلا محطة هامة،دشنت انتقال الحضارة الحديثة من زمن الثورة الصناعية التي حققت خلال ثلاثمائة عام ما لم

تحققه حضارات البشرية خلال آلاف السنين، إلى زمن التطورات اللامتناهية في ثورة الاتصال والمعلومات والتي نقلت الحضارة الصناعية الحديثة من العولمة إلى العالمية.

لقد تمكنت ثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات من نقل العمل الاجتماعي من مجال الإنتاج الصناعي إلى مجال الإنتاج الكتروني، ونجحت أيضا في تجديد مدخلات الصناعة إذ غدت تعتمد على المواد الخفيفة بدلاً من المواد الثقيلة، فيما تغيّرت الوسائط المنظمة للعلاقة بين الإنتاج والتسويق بحلول إدارة المعلومات محل إدارة العمليات نحو "رقمنة الإنسان"، وما ترتب على ذلك من تحولات جذرية في معايير الأرباح بوصفها المصدر الرئيسي لتراكم الثروة.

أما بنية العمل والملكية فقد تبدلتا على نحو مدهش فقد اتسع الطابع الاجتماعي للملكية على نطاق عالمي من خلال أسواق الأسهم والتجارة الالكترونية. وأصبح العمل اليوم يعتمد على قوة محركة جديدة هي العاملون الذين يتعاملون مع المعطيات الرمزية والرقمية والمعلوماتية، ثم يحولونها إلى صور وأصوات وأوامر ورسائل وقرارات وتعليمات تنتقل بسرعة الضوء من مواقع الإدارة إلى مواقع الإنتاج والتسويق داخل البلد الواحد وعلى مستوى الكوكب الأرضي بأسره.

وتواصل الحركة الاستعمارية التي لم تتوقف منذ ظهورها في استعراض قوتها وتحديد آفاقها تجاه العالم، من خلال أدوات تعرف متى وكيف تستعملها، ويتم توصيفها اليوم بالفوضى الخلاقة والبناءة، ويقول في هذا الشأن القديس أوغسطيس Saint Augustine في كتاب "مدينة الله La Cité de Dieu" واصفا المواجهة التي دارت بين الملك الاسكندر الأكبر وقرصان ألقي القبض عليه:سأل الاسكندر القرصان: كيف تجرؤ على المضايقة في البحر.

""فقال القرصان: وأنت كيف تجرؤ على مضايقة العالم بأسره. فأنا لدي قارب صغير فأطلق عليَ "لص"وأنت لديك أسطول فأطلق عليك "امبراطور""؛ وهكذا كان الكيل بمكيالين التي تعمل به الدول العظمى تجاه الدول أقل قوة أو ما يسمى بسياسة العصا والجزرة هذا من جهة ومن جهة أخرى،يقرؤنا التاريخ خلال الحرب العالمية الأولى، أن المؤرخين الأميركيون عرضوا على الرئيس ويلسون آنذاك بأن يقوموا بمهمة أطلقوا عليها اسم **"الهندسة التاريخية"، وتعني تصميم الحقائق التاريخية، وذلك لكي يخدموا سياسة الدولة**، كل ذلك بهدف "السيطرة على الفكر"، فالدولة التي لا تسيطر فيها الحكومة على الشعب بالقوة، فإنه من الأفضل السيطرة على ما يفكر

به الشعب، حسب الفكر السياسي الأمريكي. ؛وتتجلّى أكثر في البنية العقائدية والسياسية الأمريكية من خلال التنشئة السياسية للمواطن الأمريكي، إنَّ كلَّ طفل أميركي ممن يتعهدون بالولاء لأمريكا من خلال العقيدة المسيحية يُعَلَّم كيف استعار البيوريتانيون[18] قوتهم وعظمتهم من العهد القديم، محولين أنفسهم عن وعي إلى شعب الله المختار، الذي يتبع إرادة الرب «بقتل الكنعانيين وطردهم من أرض الميعاد». لقد رصد مؤرِّخون عديدون وجه الشبه بين تاريخ الولايات المتحدة الأميركية الحديث وتاريخ إسرائيل القديم. كما أدت هذه الطريقة، إلى كوارث حضارية فادحة في الماضي، نتيجة تزييف الواقع وباستمرار. فبمثل هذه الكارثة انتهى في العصر القديم تاريخ إسرائيل، وحرب المائة سنة بين فرنسا وانكلترا من 1337 إلى 1453، كما شهد العصر الحديث تدمير أروبا تقريباً بعد أن أصيبت بالكلفنة (نسبة إلى كلفين من زعماء الديانة البروتستانتية).

وفي القرن العشرين لقي المصير نفسه الألمان الذين احتوتهم روح الشعب المختار. واليوم يحاول الأميركيون الذين يعتبرون أنفسهم– في غالبيتهم – «أبناء الله» تجسيد إيديولوجية العهد القديم بشأن غزو الأرض.

هل هي نهاية علم العلاقات الدولية؟

يبدو أن علم العلاقات الدولية والعلاقات السياسية الدولية، تقف في حافة النهاية بعد أن تمّ التأسيس والتأصيل لعلم العلاقات الدولية وتحديد المجالات الكبرى والصغرى التي تفسر الظاهرة السياسية، المجالات الكبرى في المدارس الأساسية من المدرسة الواقعية والسلوكية والنظم، والمجالات الصغرى في المدارس التي سميت بالواقعية الجديدة والسلوكية الجديدة في العلاقات الدولية. لأنه قد تمّ تفسير مجال العلاقات السياسية الدولية وفق أهداف واستراتيجيات صيغت من أجل تحقيق المصالح الأمريكية عبر العالم والتوجه نحو الكونية **بأقل تكلفة وأقصر مدة زمنية** في استعمار البشرية **والتي تمثل أسرع هيمنة عالمية من طرف دولة حديثة النشأة كالولايات المتحدة الأمريكية** وتتم فيها الحروب **بدون معارك حقيقية ولكنها افتراضية** من خلال **التحكم والسيطرة على المعرفة والثروة معا.**

قراءة محكّمة للتاريخ السياسي العالمي:

وفي اعتقادي، يجب إعادة النظر في منظومتنا المعرفية من حيث قراءتنا للنظريات في العلاقات السياسية الدولية وقراءة التاريخ السياسي قراءة واعية حتى يتسنى لنا وضع بناء معرفي حقيقي للنهضة وإمكانية الانطلاق وليس الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى، بعد العودة والنظر في منظومتنا القيمية والأخلاقية والحضارية وبرمجة حركتنا، لأننا في خضم حرب شديدة التعقيد والخطورة في آن واحد، ولم يبق مجال التنظير في العلاقات الدولية مفتوحا كما في السابق لأنه تم الاتفاق على العملية السياسية ومسارها من خلال مدارس العلاقات الدولية وتم ضبط منظومة حددت الفاعلون داخل حقل العلاقات الدولية وغير الفاعلين خارج هذا الحقل ويتضح أن مفهوم القوة بكل مضامينه وجوانبه السياسية والاقتصادية والثقافية والمعرفية ما زال المحدد الرئيسي لمسار العلاقات السياسية الدولية.

وبات السياق التنظيري في علم العلاقات الدولية مجالا تتفاعل معه الوحدات السياسية أكثر تطورا في إدارة مجالات القوة، سعيا منها في الحفاظ على مكانتها الدولية من جهة وللتأصيل للهيمنة العالمية بمسميات وتوصيفات مختلفة، وتبقى القوة بنظرياتها العديدة ومدارسها القطب المركزي في تفسير العلاقات السياسية الدولية.

الهوامش والإحالات:

[1] هيدلي بول، **المجتمع الفوضوي،دراسة النظام في السياسة العالمية**،الإمارات العربية المتحدة:الترجمة والنشر باللغة العربية مركز الخليج للأبحاث، الطبعة الثالثة،2002 ص 11.

[2] وليد عبد الحي، **تحول المسلمات في نظريات العلاقات الدولية (دراسة مستقبلية)**، الجزائر: مؤسسة الشروق للإعلام والنشر دار الصحافة، الطبعة الأولى، 1994، ص31.

[3] جوزيف ناي، **القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية**، ترجمة د.محمد توفيق البجيرمي،الإمارات العربية المتحدة: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 2007 ص ص 181-184.

[4] C. F. Doran, **Confronting the Principles of Power Cycle**, In, M. I. Midlarski(ed.), Handbook of War Studies.II, Ann Arbor: University of Michigan, 2000, pp.368

[5] أحمد ثابت، مكانة الولايات المتحدة الأمريكية في النظام العالمي، دورة القوة والتوازن الدولي الجديد، **مجلة السياسة الدولية**،العدد 171، مصر، مطابع الأهرام، المجلد 13، جانفي 2008، ص ص 8،9

[6] C. F. Doran.**System in Crisis:New Imperatives of High Politics at century's end**, Cambridge University Press.1991, p.30-31

[7] **مؤتمر كامبل بنرمان**، هو مؤتمر انعقد في لندن عام 1905 واستمرت جلساته حتى1907، بدعوة سرية من حزب المحافظين البريطانيين بهدف إلى إيجاد آلية تحافظ على تفوق ومكاسب الدول الاستعمارية إلى أطول أمد ممكن وقدم فكرة المشروع لحزب الأحرار الحاكم في ذلك الوقت. وضمت الدول الاستعمارية في ذاك الوقت وهي :بريطانيا، فرنسا، هولندا، بلجيكا، اسبانيا، إيطاليا، وفي نهاية المؤتمر خرجوا بوثيقة سرية سموها " وثيقة كامبل" نسبة إلى رئيس الوزراء البريطاني آنذاك هنري كامبل-بانرمانSir H. Compbell Bonnerman .أنظر http://www.marefa.org/i مؤتمر كامبل 2011/03/23

[8] وليد عبد الحي، المرجع السابق، ص 34.

[9] أحمد ثابت، السياسة الدولية، المرجع السابق، ص، 15.

[10] مارتن غريفيش وتيري أوكالاهان، **المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية**،الإمارات العربية المتحدة، مركز الخليج للأبحاث،الطبعة الأولى، 2008 ص 157

[11] جون أركيلا ودايفيد رووزنفلت، **انبثاق سياسة المعرفة،الحرب الافتراضية هي حرب المستقبل**،المركز العربي للدراسات المستقبلية http://www.mostakbaliat.com/link48.html ص1 2011/02/25.

[12] المرجع نفسه.

[13] **حروب المستقبل تسلح إلكتروني يقوده جنرالات من هاكرز**،الاقتصادية الالكترونية 2011/05/23 http://www.aleqt.com/2011/03/25/article_518759.html

[14] كلمة ألمانية، تعني في الأصل (الدولة) بصرف النظر عن نوع الحكم فيها، ثم أصبحت تعني معنى أوسع هو الإمبراطورية وكان الرايخ الأول هو ما يعرف تاريخياً باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة (806-1563) التي كانت تشمل جزءاً كبيراً من الشعب الألماني. ثم تكون الرايخ الثاني عام 1871 بعد أن وحد بسمارك ألمانيا برعاية بروسيا.= =وظل هذا الرايخ الثاني قائماً حتى عام 1918، ثم أطلق على فترة الحكم النازي اسم (الرايخ الثالث) وهو الاسم الرسمي لنظام حكم النازية في ألمانيا الممتد بين يناير 23 إلى أبريل 1945، أما التعبير نفسه فقد اخترعه الكاتب الألماني القومي المتعصب مولرفان دربروك والذي استخدمه كعنوان لكتاب له صدر بعد سقوط الرايخ الثاني مباشرة في عام 1918.أنظر الرايخ

http://www.ishraqa.com/newlook/art_det.asp?ArtID=93&Cat_ID=15
2009/10/10

[15]سيرج لاتوش، **تغريب العالم الإسلامي**، تعريب خليل كلفت، القاهرة:دار العالم الثالث الثقافية،الطبعة الأولى 1992، ص. 25.

[16] النافتا NAFTAمنطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية.

[17] إمبراطوريات الغذاء.

[18] البيوريتانية Puritanism هي «التطهّرية»، مذهب ديني ظهر في القرن السادس عشر الميلادي، امتداداً لحركات الإصلاح الديني التي شهدها الغرب الأوربي. أُطلِق على أتباعها البيوريتانيون Puritans أي المتطهرون. وتستند تعاليمهم إلى الإيمان بالكتاب المقدس مصدراً وحيداً للعقيدة الدينية من دون الأخذ بأقوال القديسين ورجال الكنيسة، ويقضي بأن من واجب الإنسان أن يكون سلوكه في الحياة مطابقاً لما ورد في الكتاب المقدس، وعليه أن يؤمن بعقيدة القضاء والقدر. تأثرت الحركة التطهرية في نشأتها بمبادئ العقيدة البروتستنتية ولاسيما بتعاليم كالفن Calvin وتسفنغلي Zwingliوبولينغر Bullinger حتى أطلق بعضهم على البيوريتانية اسم الكالفينية. وللحروب الدامية التي شهدتها

إنكلترة عملت الملكة إليزابيت الأولى على حل هذا الصراع المرير وتبني المذهب الأنغليكاني، وسميت الكنيسة بـ «الكنيسة الأنغليكانية» ومقرها كانتربري، وهي بروتستنتية في مبادئها وأقرب إلى الكاثوليكية في مظاهرها، وهذا ما أثار عداوة من عُرف بالمتطهرين، الذين تعرضوا لاضطهاد المجلس الأعلى للكنيسة الذي تأسس عام 1583، فدفع عدداً كبيراً منهم إلى الهجرة. قد أدى انتشار التطهرية إلى ظهور طوائف كثيرة مازالت قائمة إلى اليوم. منها جماعة المتّقين التقوية Pietism في ألمانية في القرن السابع عشر، وكذلك الحركة المنهجية Methodism في إنجلترا في القرن الثامن عشر، كما ظهرت في الولايات المتحدة جماعة متطرفة تحمل اسم الكويكرز Quakersالبروتستنتية. محمد حسن عبيد، البيوريتانية، 2009/06/13.

http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia